**سورة يس**

سورة يس سورة من السور المكية، ومن مقاصدها العظيمة: الإنذار بالبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال؛ من خلال التقرير، والقصة وضرب المثل، والتأمل في المشاهد الكونية المتنوعة، وردّ الشبه، وعرض مواقف من البعث، والحوار والجدال بالتي هي أحسن؛ كما في آخر السورة .

يس (1)

حرفان من الحروف العربية، التي بها أنزل الله تعالى هذا القرآن العظيم .

وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2)

قسمٌ من الله تبارك وتعالى بهذا القرآن:

1. المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.
2. المشتمل على الحكمة:
3. بوضع الأمر والنهي، والثواب والعقاب في محالها اللائقة بها.
4. وبتشريع الأحكام المشتملة على غاية الحكمة.

إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3)

وجواب هذا القسم: إثبات أن محمدًا ليس ببدعٍ من الرسل، بل هو من جملة رسل الله الكُمّل؛ ردًا على من قال: (لَسْتَ مُرْسَلًا) .

بل المقسم به - وهو القرآن الحكيم - من أعظم الأدلة على صدق المقسم عليه - وهي رسالة النبي - .

ثم أخبر تعالى بأعظم أوصاف الرسول ، الدالة على رسالته:

عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4)

1. أنه على منهج قويم، وشرع مستقيم، سار عليه الرسل من قبله، فهو شرعٌ:
2. مستقيم مع فطرة الكون وخلق الإنسان؛ دون اضطراب أو تناقض .
3. ومستقيم في طريق الوصول إلى المطلوب؛ من رضا الله تعالى، دون عوج أو غموض .

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5)

1. أنه يوحى إليه من ربه سبحانه بوحيٍّ أنزله الله :
2. وحماه بعزته عن التغيير والتبديل.
3. ورحم به عباده رحمةً، توصلهم إلى دار رحمته.

لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (6)

ولما ذكر سبحانه المرسَل والمرسَل به والمرسِل؛ ذكر المرسَل له، وهم:

1. العرب الأميون - ومن لحق بهم من كل أمي - خصوصًا، فإنهم ما أنذر آباؤهم الأقربون لتطاول مدة الفترة بعد نبي الله إسماعيل عليه السلام؛ إذ لم يكن لهم بعده من رسول.
2. ومن تبعهم من أهل الكتاب عمومًا، كما قال تعالى: (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا).

وذكر سبحانه غاية هذه الرسالة: وهي الإنذار الرافع لحجب الغفلة؛ التي أفسدت قلوبهم، وعطلت حواسهم، ونتجت عن بعدهم عن الوحي والرسالة.

ثم ذكر سبحانه موقفهم من الرسالة والرسول، فقد انقسموا إلى قسمين:

لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7)

1. القسم الأول، وهم الأكثر: نفذ فيهم القضاء والمشيئة، ووجب عليهم العذاب؛ كما قال تعالى: (ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين)؛ لما ردوا الرسالة، ولم يقبلوا النذارة، ولم يؤمنوا بالرسول الذي أرسل إليهم، ولا بالقرآن الذي نزل عليه .

فصاروا بعد هذا التكذيب لا ينتفعون بالإنذار كحال من:

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (8)

1. جمعت يداه إلى عنقه، وأوثقت بالقيود والسلاسل التي بلغت إلى ذقنه؛ فلا يملك حرية الحركة السوية.
2. وأصبح مقمحًا؛ رأسه مرفوعًا قسرًا، لا ينظر إلا إلى الأمام، فلا يملك حرية النظر والرؤية .

وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (9)

1. ولو أرخي شدّ الأغلال، وتحركت رؤوسهم لم تنفذ أبصارهم - أصلاً - من خلال السدود والحوائل عن الإيمان التي جعلها الله تعالى من أمامهم ومن خلفهم، ومن كل جهة .
2. بل ولو زالت تلك السدود لم يروا النور، ولم يهتدوا به، فقد أعمى الله تعالى أبصارهم عن رؤية الحق فهم لا ينتفعون بخير، ولا يهتدون إليه.

وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (10)

1. بل ومنعوا كذلك من الانتفاع بحاسة السمع - بعد تعطيل الانتفاع بحاسة البصر -، فيستوي عندهم أن تنذرهم بالوحي أو أن تترك نذارتهم، فلن يثمر ذلك إيمانهم؛ كما قال تعالى: (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون \* ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم).

فنعوذ بالله من حال من أعرض عن دين الله فأضله الله، وختم على قلبه وسمعه، وجعل على بصره غشاوة، فلم يعرف حقًا، ولم ينكر باطلاً، قال عزّ من قائل: (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة)؛ أي لأجل ترك الإيمان به أول ما عُرض عليهم، نسأل الله السلامة .

إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (11)

1. والقسم الثاني: هم من قبلوا النذارة، فكانت قلوبهم حية، مستعدة لتلقي الوحي؛ لاتصافهم بصفتين:
2. حرصهم على معرفة الذكر - وهو القرآن -، وتعلمه واتباعه .
3. خشيتهم من ربهم الرحمن ومن نُذِره؛ في حال شهود الناس لهم، وفي الحال التي لا يطلع عليهم فيها إلا رب الناس سبحانه .

ومتى ما حلت خشية الله في قلب تبعها العمل بهدى الله، والاستقامة على شرعه، جعلنا الله كذلك .

بل وينفعهم أيضًا تذكر إحسان الله ونعمه عليهم، قال البقاعي: "ودلّ لفت الكلام عن مظهر العظمة إلى الوصف بالرحمانية على أن أهل الخشية يكفيهم في الاتعاظ التذكير بالإحسان" .

فاستحقوا أن يبشروا بأمرين:

1. مغفرة الله لذنوبهم - وإن عظمت وتكررت - ما داموا قد تابوا منها خشيةً لله .
2. أجر الله وثوابه وكرمه؛ جزاء صالحاتهم وخشيتهم واتباعهم للذكر .

ومن أجل ذلك أكدّ سبحانه في هذا الموضع وقوع البعث ودقة الحساب؛ تأكيدًا على مقصد السورة الكريمة:

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (12)

فيبعث الله الأموات يوم القيامة، ثم يحاسبهم سبحانه على ما كتبته ملائكتُه في صحف الأعمال، وما أحصاه عليهم وعدّه وحفظه في اللوح المحفوظ، وهو الإمام المبين؛ لأنه أم الكتاب، ومرجع ما في صحف الملائكة، فكل صحيفة منها إمام؛ قال تعالى: (يوم ندعو كل أناس بإمامهم)؛ أي بكتاب أعمالهم الخاص بكل واحد منهم، وما في اللوح المحفوظ هو إمامها المبين الواضح الفاصل .

فيحاسبون على:

1. ما عملوه؛ من خير أو شر في حياتهم.
2. وما ترتب على أعمالهم؛ من آثار خير أو شر في حياتهم أو بعد مماتهم، قال النبي : "من سنّ في الإسلام سنة حسنة، كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا"، رواه مسلم .
3. وما مشوه بأرجلهم؛ من خطى إلى الخير أو إلى الشر؛ كقوله لبني سلمة لما أرادوا أن ينتقلوا إلى قريب من المسجد،: "يا بني سلمة، دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم"، أخرجه مسلم، وفي البخاري: "يا بني سلمة، ألا تحتسبون آثاركم، فأقاموا"، ونزلت في ذلك الآية .

قال قتادة: لو كان الله تعالى مغفلاً شيئًا من شأنك يا بن آدم، أغفل ما تعفي الرياح من هذه الآثار، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله، حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله أو من معصيته، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره في طاعة الله، فليفعل.

وبعد عرض قضية الوحي والرسالة والبعث والحساب في هذه الصورة التقريرية، تعود الآيات لتعرضها في صورة قصصية:

فتعرض لنا نموذجين: الأول النموذج الكافر:

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13)

واضرب - يا محمد - لقومك الذين كذبوك، وكذبوا البعث والنشور ما يشبه حالك وحالهم من قصة أصحاب القرية؛ إذ جاءها المرسلون من عند الله، فكان حالهم:

إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (14)

1. أن جاءهم رسولان، فكذبوهما .
2. فأرسل الله مع الرسولين ثالثًا، فقواهما به، فصاروا ثلاثة رسل؛ اعتناءً من الله بهم، وإقامة للحجة عليهم بتوالي الرسل إليهم .

فاعترضوا على رسلهم باعتراضات من قبلهم على أنبيائهم:

قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15)

1. الاعتراض الأول: أنتم بشر عاديون، مثلكم مثلنا، فكيف أوحي إليكم وأنتم بشر؟، ولم لا يُوحى إلينا مثلكم؟ ولو كنتم رسلاً لما كنتم مثلنا، بل كنتم ملائكة!، فأنكروا رسالة الله عز وجل كعادة من قبلهم في الإنكار، قال تعالى: (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا) .

بل تجرأوا، وأنكروا كل رسالات الله تعالى، واتهموا رسلهم بالكذب، وزعموا أن عموم رحمة الله الرحمن تقتضي أن يسوي بيننا في الرحمة، فلا يخصكم بشيء دوننا!.

قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16)

فأكدّ لهم رسلهم أنهم مرسلون من عند الله، ومن أدلتهم على ذلك: علم الله وإطلاعه عليهم، فلو كانوا كاذبين لانتقم الله منهم، ولم يعزهم، ولم ينصرهم؛ كقوله تعالى: (قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدًا يعلم ما في السموات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون).

وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (17)

وأكدّ لهم رسلهم أن وظيفتهم إنما هي البلاغ المؤيد بالأدلة القطعية الواضحة.

ثم اعترض المكذبون على رسلهم بالاعتراض الثاني، فقالوا:

قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (18)

1. قالوا: ما حُبس المطر والرزق عنا إلا بسبب قدومكم علينا!.

والتشاؤم بالرسل والصالحين من خرافات الجاهليين، ومن مسلك المكذبين للرسالات من قبل.

1. ثم تمادوا في سلوك مسلك المنكرين لرسالات الله، فهددوا رسلهم بالقتل بأشنع القتلات؛ رجمًا بالحجارة، وبالعذاب المؤلم الموجع، وهي طريقة أهل الباطل في كل زمان في مقاومة الحجة الرسالية .

قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (19)

وأجابتهم رسلهم أن تشاؤمكم مردود عليكم، وهو من قبلكم؛ جراء أعمالكم القبيحة، المقتضية لوقوع المكروه والنقمة، وارتفاع المحبوب والنعمة، والتي منها:

1. تكذيبكم لرسلكم؛ لما ذكروكم بالإيمان بالله تعالى.
2. وإسرافكم في الشرك والذنوب والظلم، ومجاوزة الحدود .

وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20)

ومع هؤلاء الرسل الثلاثة جاءهم داعية رابع، يدافع عن دعوة رسل الله، وينصح قومه بالاستجابة للحق الذي معهم، وكان من شدة حرصه أنه:

1. جاء من مكان بعيد .
2. وجاءهم يسعى، فوق المشي، ودون العدو؛ حرصًا على نصيحتهم .
3. ثم ناداهم شفقة بهم؛ بما بينه وبينهم من نسب قرابة، وسبب جوار: (يا قوم).
4. ودعاهم لاتباع الرسل الذين أرسلهم الله إليهم، ووضح لهم ما يحملهم على ذلك:

اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21)

1. أنهم يبلغونكم شرع الله تعالى، ولا يطلبون لأجل ذلك مقابلاً، فارتفع المانع من قبول ما جاءوا به.
2. أنهم مهتدون للحق والخير، ويدعونهم لذلك، فعظم الدافع لقبول ما جاءوا به.

قال ابن عاشور: " وبهذا يظهر وجه تقديم من أقصا المدينة على رجل؛ للاهتمام بالثناء على أهل أقصى المدينة، وأنه قد يوجد الخير في الأطراف ما لا يوجد في الوسط، وأن الإيمان يسبق إليه الضعفاء؛ لأنهم لا يصدهم عن الحق ما فيه أهل السيادة من ترف وعظمة؛ إذ المعتاد أنهم يسكنون وسط المدينة" .

وكأنهم لاموه على اتباع دين الله، وترك دينهم الباطل، فأجابهم جريئًا في قول الحق، فصيحًا في بيانه ودعوتهم إليه، مرغبًا فيما اختاره لنفسه، وموبخًا لمن يأباه:

وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22)

1. كيف لا أعبد من فطرني وخلقني، وإليه أرجع، وكيف لا تعبدون الذي فطركم وخلقكم، وإليه ترجعون!، فسبحانه منه مبدؤنا، وإليه مرجعنا.

أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (23)

1. ويؤكد هذا المعنى موبخًا ومقرعًا لهم: وكيف أعبد إلهًا غير الله، ولو أرادني الله بضر لم يستطيعوا أن :
2. ينقذوني - بقوتهم - من وقوع قضاء الله عليّ، فيرفعوه عني .
3. ولا يشفعوا لي عند الله - بمكانتهم -؛ فيدفعوه عني .

إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24)

1. ثم كيف تدعونني إلى ضلال بيّنٍ واضحٍ في نفسه، لا أقدر معه على أي نوع من الاهتداء .

إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25)

4- بل أنا آمنتُ بربكم الذي أحسن إليكم بنعمه، فاسمعوا وأطيعوا قولي .

قال المفسرون: فلما قال ذلك، وثبوا عليه وثبة رجل واحد، ولم يكن له أحد يمنع عنه، فالتفت إلى الرسل، فقال: إني آمنتُ بربكم الذي أرسلكم، فاشهدوا لي بذلك عنده، فقتلوه، قيل: رجموه بالحجارة، وقيل: حرقوه بالنار، وقيل: نشروه بالمنشار، رحمه الله.

قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26)

فقال الله لهذا الشهيد: ادخل الجنة؛ لأن الشهداء يسرحون في الجنة حيث شاؤوا من حين موتهم، فلما ذهب عنه سقم الدنيا وحزنها، ووجد نعيم الجنة وأمنها، قال: يا ليت قومي يعلمون.

قال قتادة: لا تلقى المؤمن إلا ناصحًا، لا تلقاه غاشًا؛ لما عاين ما عاين من كرامة الله، قال: (يا ليت قومي يعلمون\* بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين) تمنى على الله أن يعلم قومه ما عاين من كرامة الله له .

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نصح قومه في حياته بقوله: (يا قوم اتبعوا المرسلين)، وبعد مماته في قوله: (يا ليت قومي يعلمون \* بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين).

وأشبه قوله قول من استشهد من الصحابة في بئر معونة - كما رواه البخاري - عن أنس رضي الله عنه؛ إذ قالوا: بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا، وفي غزوة أحد لما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم، وحسن مقيلهم: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا؛ لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، فقال تبارك وتعالى: فأنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله تعالى على رسوله : (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا)؛ الآيات في سورة آل عمران.

قال القرطبي (15/20): "وفي هذه الآية تنبيه عظيم، ودلالة على وجوب كظم الغيظ، والحلم عن أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي، والتشمر في تخليصه، والتلطف في افتدائه، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه. ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته، والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام" .

بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27)

1. فأزال عني أنواع العقوبات؛ بمغفرته.
2. ومنذ عليّ بأنواع الهبات والمسرات؛ بكرمه.

كان هذا جزاء الإيمان، أما مصير الكفر وأهله، قال تعالى:

وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (28)

فهم أهون من أن يرسل الله تعالى عليهم جموعًا من ملائكة السماء؛ لتدميرهم، وإهلاكهم أيسر على الله عز وجل من ذلك، بل لم تكن من سنة الله في إهلاك القرى الظالمة أن يرسل عليها أكثر من ملك واحد من ملائكته .

فماذا فعل بهم سبحانه !.

إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (29)

انتقم الله منهم غضبًا علهم؛ لما كذبوا رسله، وقتلوا وليه، فأرسل إليهم جبريل فصاح فيهم بصوت واحد قطع قلوبهم في أجوافهم، فأصبحوا خامدين ميتين عن آخرهم؛ لا حركة لهم ولا صوت، ولا حياة، بعد ذلك الكفر والاستكبار.

يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (30)

يا حسرة على العباد ينادون للإيمان فيكفرون، ويدعون لجنان الله فيأبون، وتأتيهم رسل الله بالبينات فيستهزئون، ومن قبلهم مصارع الأمم الظالمة فلا يعتبرون.

ثم يُذكرهم ربهم سبحانه وتعالى بأربع آياتٍ من آياته ودلالاته الباهرة العظيمة التي تدل على عظمته ووحدانيته، وقدرته على بعث الخلق بعد موتهم :

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (31)

1. أما الآية الأولى: فإهلاك الأمم الكثيرة المتعاقبة من قبلهم لما كذبوا رسلهم، وأعرضوا عن توحيد الله .

فهل اتعظوا بمضيهم تباعًا، وقد علموا أنهم مضوا من هذه الدار، ولم يرجعوا لها .

أفلم تكن لهم عبرة ببشرٍ أهلكهم الله تعالى من أمثالهم ! .

وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (32)

لكن للكل من الأمم الماضية والآتية موعد يزم القيامة، يُحضرهم الله القدير سبحانه فيه بين يديه؛ للحساب والجزاء؛ كما قال تعالى: (وإن كلاً لما ليوفينهم ربك أعمالهم) .

وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33)

1. والآية الثانية: آية الأرض الميتة - التي من جنسها خلقوا - أحياها الله بعد موتها:
2. فأخرج من جوفها حبًا، جعله قوتًا، يأكلون منه هم وأنعامهم .

وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34)

1. وأنبت على ظهرها بساتين يانعة؛ من نخيلٍ ترتفع، فتناطح السماء، وأعناب تتدلى، فتنفرش على الأرض، بها انتفاعهم وسرورهم .
2. ثم فجر سبحانه من عيونٍ تسبح في جوفها عيونًا تجري على ظهرها؛ بماءٍ به قوام حياتهم، وجمال عيشهم .

لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (35)

ليأكلوا من ثمر النخيل والعنب والحب ما يكون قوتًا وأدمًا وتفكهًا ودواءً، لم تعمله أيديهم، ولم يكن بسعيهم ولا كدهم، ولا حولهم ولا قوتهم، بالله سبحانه خلقه وسخره لهم، فلم يحتاجوا في أكل جلها لطبخٍ ولا طهيٍّ، فهلا شكروا نعمته، ولم يكفروا برسله .

سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36)

تنزه الله عن كفرهم، وسبحان الله الذي أحسن كل شيء خلقه، فجعله زوجين يتناسل:

1. من نبات الأرض، حبها وشجرها .
2. ومن أنفسهم؛ ذكرًا وأنثى .
3. ومن مخلوقات لا يعلمها إلا الذي خلقها وأبدعها، سبحانه؛ كما قال سبحانه: (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون).

أفلم تكن لهم عبرة بأرضٍ أحياها الله تعالى من جنسهم، وأزواج فيها من أمثالهم ! .

وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (37)

3- والآية الثالثة: أفلاك تسبح فوقهم في السماء:

1. ليلٌ يَنزع عنهم ضوء النهار؛ بأمر الله وتقديره؛ ليناموا ويستقروا.

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38)

1. وشمسٌ تسير كل يوم إلى ميقات غروبها؛ بتقدير محكمٍ؛ ممن عزت قوته وجلّ علمه .

قال رسولنا لأبي ذر حين غربت الشمس: "تدري أين تذهب؟"، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: "فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن، فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، يقال لها: ارجعي من حيث جئتِ؛ فتطلع من مغربها؛ فذلك قوله تعالى: (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم)، أخرجه البخاري، وأصله في مسلم.

وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39)

ج- وقمرٌ يسير في السماء سيرًا يُستدل به على مضي الشهور، في منازل معلومة ومؤقتة، يبدأ فيها ضعيفًا، ثم يكتمل فيها بدرًا، ثم يعود فيها ضعيفًا؛ كعذق النخلة اليابس البالي .

لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)

لا آية النهار تدرك آية الليل، ولا ظلام الليل يسبق ضوء النهار، بل كلها تسبح في نظام محكم لا يختل، وسيرٍ مقدرٍ لا ينحل .

* فالشمس يشتد ضوؤها، ويضعف في يوم واحد، وتتنقل في مطالعها ومغاربها صيفًا وشتاءً، فيطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار.
* والقمر يشتد نوره، ويضعف في شهر واحد، وينتقل في منازله، فيولد شهرٌ، ويمضي آخر، ويستتر ليلة أو ليلتين؛ فيطول شهرٌ، وينقص آخر .

قال البقاعي: إذا جاء سلطان هذا ذهب ذاك، وإذا جاء ذاك ذهب هذا، فإذا اجتمعا قامت الساعة .

أفلم تكن لهم عبرة بليل ونهار يتعاقبان، وبشمس وقمر - أكبر من خلقهم - يشتدان ويضعفان ! .

وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (41)

1. والآية الرابعة: أفلاك تسبح فوق الأرض:
2. أولها فلك مشحون ومملوء بالأمتعة يسبح فوق الماء، حمل آباءهم - من ذرية القرون الماضية - وأنجاهم الله به من الطوفان .

وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (42)

1. وثانيها سفنٌ تسبح في الصحراء؛ من إبل يركبون عليها، ويحملون عليها أمتعتهم.

وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (43)

ولو شاء الله لم تحملهم، بل أغرقتهم، فلا مغيث لهم مما هم فيه، ولا منقذ لهم مما أصابهم.

إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (44)

لكنها سارت برحمةٍ من الله لهم، يتمتعون بها إلى وقت معلوم عند الله.

أفلم تكن لهم عبرة بسفنٍ تحملهم برًا وبحرًا وجوًا، ولو شاء الله لأخذهم في أي لحظة، فما هم بمعجزين ! .

ومع هذه الآيات البينات الواضحات إلا أن موقفهم كان الجحود والاستهزاء، فلا لآيات الله تدبروا، ولا لعضات الله اعتبروا، ولا لرسل الله استجابوا، بل كان موقفهم موقف المستهزئين المعرضين، وذكر الله من استهزائهم ثلاثة مواقف شنيعة:

الموقف الأول: إذا خوفوا من عذاب الله:

وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون (45)

فإذا قيل لهم: خافوا خوفًا عظيمًا تصلحون به :

1. ما خلفتم من ذنوب ماضيات، وتحذرون فيه وقائع وقعت على أسلافكم مهلكات .
2. وما تستقبلون من ذنوب آتيات، وتحذرون فيه وقائع الآخرة المهولات .

لعل الله العفو الغفور يرحمكم، ويصلح أحوالكم .

وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين (46)

لم يكن موقفهم من هذا التذكير إلا كموقفهم من سائر الآيات الكونية التي ذكروا بها، موقف الكفر والإعراض، بل والاستهزاء، لا يتأملون آية، ولا يتعظون بتذكير .

قال ابن سعدي عند قول الله تعالى: (من آيات ربهم): "وإن من جملة تربية الله لعباده، أن أوصل إليهم الآيات التي يستدلون بها على ما ينفعهم في دينهم ودنياهم".

الموقف الثاني: إذا دعوا إلى الإحسان لعباد الله؛ إذ الرحمة والرزق والنصر إنما تكون برحمة الضعفاء؛ كقول النبي : "هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم"، وقوله: "إنما يرحم الله من عباده الرحماء"، قاله البقاعي .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (47)

فإذا قيل لهم: أحسنوا لعباد الله، وأنفقوا عليهم من رزق الله، شنعوا على الآمرين لهم بالمعروف بأمرين:

1. الأول: احتجوا بمضي قدر الله ومشيئته في جعلهم فقراء، ليس لهم طعام، وجهلوا أن الله تعالى جعل طعام الفقراء تارة بلا واسطة بينه وبينهم، وتارة بواسطة الأغنياء؛ امتحانًا لشكرهم لنعمته، وقيامهم بحق طاعته!.
2. والثاني: نسبوا من دعاهم إلى الإحسان للمحتاجين والمساكين إلى الضلال الظاهر البيّن، بل جعلوهم في ضلال محيط بهم من كل جانب .

والموقف الثالث: إذا ذكروا بيوم البعث والجزاء والحساب:

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (48)

استبعدوا قيام الساعة، وأنكروها:

1. وسألوا مستهزئين: متى سيقع هذا الذي توعدوننا به !، تارة تلويحاً، وتارة تصريحاً .
2. ثم طلبوا تهكمًا تعجيله؛ ليصدقوا بوقوعه، وقد قال الله عنهم: (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها).
3. ثم أكدوا تكذيبهم به بقولهم : (إن كنتم صادقين).

قال صاحب ظلال القرآن: "ووعد الله لا يستقدم لاستعجال البشر، ولا يستأخر لرجائهم في تأخيره، فكل شيء عند الله بمقدار" .

وكان جواب الله تعالى عن مواقفهم الثلاثة الاستهزائية، أن ذكرّهم سبحانه بثلاثة مشاهد من مشاهد يوم القيامة:

المشهد الأول: مشهدهم يوم نفخة الصعق والموت:

مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (49)

ما يمهلهم ولا يؤخرهم ربهم إلا إلى نفخة واحدة، ينفخها إسرافيل - بأمر الله تعالى - فيصغون لها، ويميلون بأعناقهم؛ ليستمعوا لها، فتهلكهم جميعاً، وهم في غفلة عنها، يختصمون بينهم في أمور دنياهم، وبيعهم وشرائهم.

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50)

ويعجزون عندها فجأتها:

1. أن يقولوا قولاً يوصون فيه؛ بأغلى ما يملكون لأغلى من يحبون من أهلهم .
2. ولا أن يخطوا خطى، يرجعون فيها إلى أهليهم؛ فضلاً إلى غيرهم، بل يموت كل واحد منهم في مكانه؛ حيث تفجأه الصيحة، وفي الحديث: "لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يبيعانه ولا يطويانه... ولتقومن الساعة وقد رفع الرجل أكلته إلى فيه فلا يطعمها"، أخرجه البخاري .

والمشهد الثاني: مشهدهم يوم ينفخ في الصور نفخة البعث والنشور، بعد أربعين سنة من النفخة الأولى:

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51)

1. فكان حالهم: أنهم خرجوا من قبورهم يسيرون سيرًا سريعًا إلى لقاء ربهم سبحانه، الذي كفروا به، وبلقائه؛ كقوله تعالى: (يوم يخرجون من الأجداث سراعًا كأنهم إلى نصب يوفضون) .

قال البقاعي: "فيا لها من قدرة شاملة، وحكمة كاملة، حيث كان صوت واحد يحيي تارة، ويميت أخرى".

قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52)

1. وكان قولهم لما عاينوا ما كذبوه في محشرهم: أن تنادوا بالويل والثبور، وتساءلوا: (من بعثنا من مرقدنا)، يقصدون من قبورنا التي كان عذابنا فيها بالنسبة لما سنلاقيه من حساب الله عذابه كالراحة التي يجدها النائم في مرقده ! .

فأجابهم المؤمنون والملائكة:

1. (هذا ما وعد الرحمن) بوقوعه .
2. (وصدق المرسلون) في تذكيركم به؛ كقوله تعالى في سورة الصافات: (وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين . هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون)، وقوله: (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون . وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون) .

قال ابن سعدي في لفتة جميلة: "ولا تحسب أن ذكر الرحمن في هذا الموضع، لمجرد الخبر عن وعده، وإنما ذلك للإخبار بأنه في ذلك اليوم العظيم، سيرون من رحمته ما لا يخطر على الظنون، ولا حسب به الحاسبون، كقوله: (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ)، (وَخَشَعَتِ الأصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ)، ونحو ذلك، مما يذكر اسمه الرحمن في هذا" .

إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (53)

وتحقق وعد الله، وخبر رسله: أنها نفخة وصيحة واحدة وإذا بالله يحضرهم جميعًا بين يديه للجزاء والحساب، وملائكة يقودونهم، وآخرون يسوقونهم؛ قال سبحانه: (فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة) .

فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (54)

وتحقق وعد الله تعالى فإذا هم مجموعون للحساب :

1. فلا تُظلم نفس من النفوس شيئًا مما تستحقه، ولا ينقص من ثواب عملها شيئًا.
2. ولا تجزى نفس من النفوس إلا بما عملت، ولا يزاد عليها في عملها شيئًا .

فمن وجد خيرًا؛ فليحمد الله على ذلك، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه، اللهم سلم، سلم .

والمشهد الثالث: مشهدهم ومشهد المؤمنين يوم القيامة، "فلما قرر أن الجزاء من جنس العمل، شرع في تفصيله، وبدأ بأشرف الحزبين في جواب من سأل عن هذا الجزاء، فقال مؤسفاً لأهل الشقاء"، كما قاله البقاعي.

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (55)

فإذا ارتحل أهل الجنة من العرصات، ونزلوا في روضات الجنات، وجدوا من النعيم ما لا يخطر على قلب بشر، ووصف سبحانه في هذه الآيات من نعيمهم خمسة أمورٍ:

1. أنهم في شغل تنعموا وأعجبوا وفرحوا به، فلهم فيه عيش المتفكه الآمن بتمام اللذة والراحة .

قال الألوسي: "والشغل هو الشأن الذي يصد المرء ويشغله عما سواه من شؤونه؛ لكونه أهم عنده من الكل؛ إما لا يجابه كمال المسرة، أو كمال المساءة، والمراد هاهنا هو الأول، وتنكيره للتعظيم كأنه شغلٌ لا يدرك كنهه، والمراد به ما هم فيه من النعيم الذي شغلهم عن كل ما يخطر بالبال" .

وأيّ شغلٍ في الجنة هو بهذا الوصف ؟:

1. قيل: شغلهم بافتضاض الأبكار، قاله جماعة من السلف .
2. وقيل: تلذذهم بسماع الأوتار، قاله وكيع .
3. وقيل: شغلهم في زيارة بعضهم بعضًا، قاله ابن كيسان .

هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (56)

1. أنهم يجلسون مع أزواجهم تحت الظلال، وفوق السرر المزينة العالية التي يتكئون عليها:
2. ليتلذذوا بأزواجهم من الحور العين على الأسرة ذات الحجال .
3. وليتحدثوا مع أزواجهم وأشباههم من الأصدقاء على المتآكي الحسان .

لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (57)

1. أنهم يتلذذون بأنواع الفواكه اللذيذة التي لا تنقطع عنهم، ولا تُمنع .
2. وأنهم يجدون كل ما يتمنونه ويطلبونه ويشتهونه من جميع أصناف الملاذ.

سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58)

1. أن الله الرحيم يسلم عليهم؛ كقوله تعالى: {تحيتهم يوم يلقونه سلام}، وما يتبعه من تسليمه لهم من جميع الآفات والمنغصات .

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله : "إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير كله في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك ؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا ربِ، وأيّ شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول: أحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا ".

فذكر سبحانه نعيمهم في أفعالهم، ونعيمهم في أحاديثهم، ونعيمهم بطعامهم، ونعيمهم في تحقق أمانيهم، ونعيمهم في سلامتهم من كل آفة، وفي لقاء ربهم الرحيم سبحانه .

قال ابن سعدي: "فلولا أن الله تعالى قدر أن لا يموتوا، أو تزول قلوبهم عن أماكنها من الفرح والبهجة والسرور لحصل ذلك" .

وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (59)

ثم نودي في المجرمين العريقين في الإجرام في موقف التوبيخ والتقريع الأول: اعتزلوا اليوم من الصالحين، وتميزوا عنهم، ولا يقع في أوهامكم أنكم تخالطونهم أصلاً، فقد كنتم تمتازون عنهم في الدنيا ترفعاً واستكباراً؛ كقوله تعالى: (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون)، (يومئذ يصدعون)؛ أي: يصيرون صدعين فرقتين .

فأسروا الندامة، وسُقط في أيديهم، وعضوا على أيديهم، وشخصت منهم الأبصار، وكلحت الوجوه، وانخلعت القلوب، ونكست الرؤوس، وبلغت بهم الحسرة كل مبلغ .

ثم يوبخهم الله تعالى ويقرعهم في موقف التوبيخ والتقريع الثاني على رءوس الأشهاد قبل أن يدخلهم النار، يوم أن أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين، وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم، فيقول لهم:

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60)

ألم أوصيكم إيصاء عظيماً بما نصبت لكم من أدلة، ومنحت لكم من عقول، وبعثت فيكم من رسل، وأنزلت عليهم من كتب، وبيّنتُ لكم فيها طريق النجاة والصرط المستقيم:

1. أن تتخذوا الشيطان عدوًا، ولا تعبدوه.

وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61)

1. وأن تعبدوني، وتتبعوا صراطي وشرعي المستقيم .

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62)

1. وأن تعتبروا بالخلق الكثير الذين صدهم الشيطان عن صراطي المستقيم .

وفي موقف التوبيخ والتقريع الثالث يقال لهم:

هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (63)

واليوم تعاينون النار التي خوف الله عز وجل من عصاه بها، وكنتم تكذبون بها؛ كما قال تعالى: (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا \* هذه النار التي كنتم بها تكذبون \* أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون) .

اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (64)

قاسوا حرها وتوقدها واضطرامها؛ بكفركم بالله ورسله وكتبه ووعيده .

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (65)

وفي موقف التوبيخ والتقريع الرابع؛ لتعظم حسرتهم وتبكيتهم:

1. يختم الله على أفواههم؛ "لأجل أن يكون الإقرار من جوارحهم؛ لأن شهادة غير الناطق أبلغ في الحجة من شهادة الناطق؛ لخروجه مخرج الإعجاز"، نظم الدرر (16/157) .
2. ثم ينطق الله بقدرته الباهرة أيديهم التي باشرت الإجرام؛ فتعترف بما أجرمت .
3. وينطق الله أرجلهم التي حضرت، فتشهد عليهم بما عملوا وكسبوا من المعاصي .

قال القرطبي (15/49): "اليد مباشرة لعمله والرجل حاضرة، وقول الحاضر على غيره شهادة، وقول الفاعل على نفسه إقرار بما قال أو فعل، فلذلك عبر عما صدر من الأيدي بالقول وعما صدر من الأرجل بالشهادة" .

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: كنا عند النبي ، فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: " أتدرون مم أضحك؟ " قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: "من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجيز علي إلا شاهدًا من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا، فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي؛ فتنطق بعمله، ثم يخلي بينه وبين الكلام، فيقول: بعدًا لكنّ وسحقًا، فعنكن كنت أناضل".

وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (66)

أنطق الله تعالى جوارحهم تقريعًا لهم وتوبيخًا، ولو شاء سبحانه لأرى المؤمنين مشاهد متعددة من السخرية والاستهزاء بهم خامس وسادس:

1. بأن يجعل أعينهم مطموسة، ثم يجعلهم يتسابقون للسير على الصراط، ويزدحمون على العبور، فكيف سيكون التنكيل بهم، والسخرية منهم، وهم لا يبصرون طريقهم !.

جزاء أن عموا عن الصراط المستقيم في الدنيا بقلوبهم فأعمى الله أبصارهم في الآخرة؛ كما قال الله: (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم).

وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (67)

1. وبعد حركتهم واضطرابهم في بحثهم عن الصراط، لو شاء سبحانه أن يمسخهم في مكانهم، فيجمدون في مكانهم، ويعجزون عن المضي للإمام، أو في اتجاه، وعن الرجوع للوراء، أو لحالتهم التي كانوا عليها قبل المسخ، بل يلزمون حالاً واحدًا، لا يتقدمون ولا يتأخرون، فأنى لهم أن يعبروا الصراط إلى الجنة .

ولن يستطيع أحد النجاة وعبور الصراط إلا أهل الإيمان، الذين يمشون في نور طاعاتهم وصالحاتهم .

وقد ذكر الله تعالى من الأدلة البيّـنة على صدق رسوله، وعلى البعث بعد الموت ما تتضح دلالته لكل عاقل، وعدد هاهنا ستة أدلة:

وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (68)

الدليل الأول: أن من نظر لمن حوله من الخلق وجد أن من طال عمره في هذه الدنيا ردّه الله تعالى إلى حالة الضعف مرة أخرى؛ ضعف القوة، وضعف العقل؛ ليعلم أن هذه الدار دار زوال وانتقال، لا دار دوام واستقرار؛ كما قال تعالى: (الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير)، وكقوله: (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا) .

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (69)

الدليل الثاني: أن من تأمل في حال النبي وحال ما أنزله الله عليه من الوحي علم براءته مما نسبه إليه المشركون من الشعر من جهتين:

الأولى: أن النبي لم يكن الشعر من طبعه، ولا يحسنه، ولا تقتضيه جبلته .

والثانية: أن هذا القرآن الذي أنزله الله تعالى عليه ذكرٌ بينٌ واضحٌ لمن تأمله وتدبره، ومحالٌ أن يكون شعرًا، من صنع الشعراء الذين يتبعهم الغاوون، كيف وقد تميز القرآن بخصيصتين:

لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (70)

1. الأولى: أن فيه نذارة بيّنة:

* موجهة لكل حيّ على وجه الأرض، كقوله تعالى: (لأنذركم به ومن بلغ).
* ونافعة لكل من كان حي القلب والضمير؛ كقوله تعالى: (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد).

1. والثانية: أن فيه حجة دامغة على كل من كفر بالله، وعاند رسله .

قال في ظلال القرآن (5/ 297): "ويضع التعبير القرآني الكفر في مقابل الحياة؛ فيجعل الكفر موتًا، ويجعل استعداد القلب للإيمان حياة" .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ

الدليل الثالث: أن من تفكر منهم في مشاهداته اليومية رأى أنعامًا خلقها الله تعالى، وسخرها لهم:

1. حتى ملّكهم إياها، وجعلها تحت سيطرتهم - وهي أكبر خلقًا منهم -، فلو شاء صغيرٌ منهم أقامها، وأناخها، وساقها، وساق خلفها قطارًا عظيمًا منها، بقدرة الله الذي سخّرها لعباده .

فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (72)

1. وجعلها مراكبهم في أسفارهم، يحملون عليها أثقالهم إلى أي بلدٍ شاءوا .
2. وجعل منها لذيذ طعامهم، فينحرونها ويأكلونها متى شاءوا .

وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (73)

1. وجعل لهم من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتاعًا إلى حين، فبها يتقون الحر والبرد؛ لباسًا وسكناً، زينةً وجمالاً .
2. وجعل نافع شرابهم؛ من ألبانها قوتًا، ومن أبوالها دواءً .

فهلا شكروا نعمة الله عز وجل، وأفردوه سبحانه بالشكر والعبادة ! "وما يملك الناس أن يصنعوا من ذلك كله شيئًا، وما يملكون أن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له، وما يملكون أن يذللوا ذبابة لم يركب الله في خصائصها أن تكون ذلولا لهم! ... وحين ينظر الإنسان إلى الأمر بهذه العين ... تصبح كل مرة يركب فيها دابة، أو يأكل قطعة من لحم، أو يشرب جرعة من لبن، أو يتناول قطعة من سمن أو جبن، أو يلبس ثوبًا من شعر أو صوف أو وبر إلى آخره، إلى آخره لمسة وجدانية تشعر قلبه بوجود الخالق ورحمته ونعمته، ويطرد هذا في كل ما تمس يده من أشياء حوله، وكل ما يستخدمه من حي أو جامد في هذا الكون الكبير، وتعود حياته كلها تسبيحًا لله، وحمدًا وعبادة آناء الليل وأطراف النهار" في ظلال القرآن (5/2976) .

لكنهم للأسف :

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (74) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (75)

اتخذوا آلهة من دون الله - الذي أحكم خلقهم، وأبدع رزقهم - يرجون أن تنصرهم:

1. مع علمهم أنها أقلّ من ذلك وأذلّ وأحقر، لا تقدر على نصر عابديها، بل ولا على الانتصار لأنفسها؛ لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل.
2. يجتمعون جنودًا حولها، يحمونها من وقوع سوء عليها، ثم يرجون أن تحميهم وتنصرهم ! .

فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (76)

فلا يصيبك الحزن - يا محمد - من تكذيبهم لك، وإنكارهم لدينك:

1. فلا حجة لهم قائمة.
2. والله سبحانه يعلم جميع ما هم عليه؛ من سرٍ وعلن، وسيجازيهم على أعمالهم .

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77)

الدليل الرابع: أن من رأى في خلق خاصة نفسه علم أن الله تعالى ابتدأ خلقه من نطفة، من سلالة من ماء مهين، ثم نقله طورًا بعد طور، حتى تمّ خَلقه وعقله، (فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)، كثير الخصومة والجدال، بفصاحة وحجة، حتى أنه ليجادل من أعطاه العقل والقوة والقدرة .

فعن بسر بن جحاش القرشي أن النبي بزق يومًا في كفه، فوضع عليها أصبعه، ثم قال: "قال الله: ابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه!، حتى إذا سويتك وعدلتك، مشيت بين بردين، وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي، قلت: أتصدق، وأنى أوان الصدقة"، أخرجه أحمد .

ومن هؤلاء المجادلين بالباطل العاص بن وائل؛ أخذ عظمًا من البطحاء، ففته بيده، ثم قال لرسول الله : أيحيي الله هذا بعد ما أرم؟ فقال رسول الله : "نعم، يميتك الله، ثم يحييك، ثم يدخلك جهنم"، أخرجه الحاكم، وأنزل الله :

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78)

وهل قدر الله عز وجل أن يخلق الإنسان من نطفةٍ، وعجز أن يُعيد خلقه من عظم مفتوت بالٍ !، تعالى الله عما يقول الظالمون علوً كبيرًا .

وهل لما عجز هذا المخلوق عن هذا الفعل دعاه ذلك أن يستبعد قدرة الخالق القادر عليه ! .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة أن النبي قال: " كان رجلٌ يسرف على نفسه، فلما حضره الموت، قال لبنيه: إذا أنا متُّ، فأحرقوني ثم اطحنوني ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قدر علي ربي ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا، فلما مات، فُعِل به ذلك، فأمر الله الأرض، فقال: اجمعي ما فيك منه، ففعلت، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعتَ؟ قال: يا ربِ خشيتك، فغفر له".

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79)

فليعلم - هذا وغيره - أن الذي أنشأه من العدم قادر على أن يعيده بعدما تفرق وتمزق .

بل وليعلم أن الله سبحانه بكل خلق عليم؛ فيعلم عز وجل العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها، أين ذهبت؟، وأين تفرقت وتمزقت؟، "ويعلم ما تنقص الأرض من أجساد الأموات وما يبقى، ويعلم الغيب والشهادة، فإذا أقرّ العبد بهذا العلم العظيم، علم أنه أعظم وأجلّ من إحياء الله الموتى من قبورهم"، تفسير السعدي ص(700).

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80)

الدليل الخامس: أن من تأمل فيما يعالجونه كل يوم؛ من إيقاد نارهم وجد عظيم قدرة الله الذي أبدع خلقه، وقدِر على كل شيء؛ وكيف مكّنهم الله سبحانه من أن يحكوا عودين أخضرين رطبين، ممتلئين ماءً، فتنقدح من بينهما نارٌ، فسبحان الذي أخرج النار من بين الماء، مع تضادهما وشدة تخالفهما، وسبحان الذي خبأ النار في الخشب والماء، لا النار تعدو على الخشب فتحرقه، ولا الماء يعدو على النار فيطفئها، سبحانه القادر على ما يريد، لا يمنعه شيء، فأنى يعجزه إخراج الموتى من قبورهم ! .

أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81)

الدليل السادس: من تأمل فوقه في خلق السموات السبع، بما فيها من الكواكب السيارة والثابتة، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال، وبحار وقفار، وما بين ذلك، دلّه ذلك على أن الله تعالى قادر على إعادة الأجساد بعد موتها؛ قال تعالى: (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) .

سبحانه الخلاق، البالغ في هذه الصفة غايتها في تكثير الخلق وتكريره، العليم بكل خلق، وما إعادته للأموات إلا فرد من أفراد آثار خلقه وبديع علمه .

إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82)

لا فرق عنده في خلق الكبير والصغير، بل إذا أراد خلقًا قال له سبحانه: كن، فيكون من غير مهلة على وفق ما أراد.

فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83)

فتنزه الله وتقدس من إله عظيم قادر، مالكٍ لكل شيء، وإليه يرجع الأمر كله، وإليه يرجع العباد يوم القيامة، فيجازي كل عاملٍ بعمله، ومن تمام ملكه سبحانه أن يدبر العباد بأحكامه القدرية، والشرعية، والجزائية يوم الدين.

آخر تفسير سورة يس، ولله الحمد والمنة .